

# الانتحار في البلدان العربية

## عوامل الخطر والحماية

### - تونس مثال تطبيقي -

#### مقدمة

الانتحار ظاهرة عالمية تزايدت في العقود الأخيرة في جميع أنحاء العالم. ولا يزال السبب الرئيسي للوفاة، حيث أن عدد الأشخاص الذين ينتحرون كل عام يفوق عدد ضحايا فيروس نقص المناعة البشرية، والملاريا، وسرطان الثدي، وغيرها. وفي عام ٢٠١٩، توفي أكثر من ٧٠٠ ألف شخص بسبب الانتحار (GMH، 2021 United).

ولهذا السبب، منذ عام ٢٠٠٣، حدّدت منظمة الصحة العالمية (OMS) والرابطة الدولية لمنع الانتحار يوم ١٠ سبتمبر من كل عام باعتباره "اليوم العالمي لمنع الانتحار".

(World Suicide Prevention Day) OMS, 2023

من طبيعة الإنسان أن يحب الحياة. الرغبة في الحياة هي غريزة إنسانية. ولكن، وعلى الرغم من ذلك، يعتمد بعض الأشخاص إنهاء حياتهم بالانتحار، قد يكون لأسباب قاهرة ومرهقة وربما مؤلمة. الانتحار جزء من السلوك البشري؛ في العصور القديمة، كانت الأسباب الرئيسية

#### د هادية العود البهلول \*

للانتحار - كما يقول برايان وتوسنيان (Brian & Tousignant) - هي ازدياد الحياة، أو الهروب من الأمراض المرتبطة بالشبخوخة، أو الدفاع عن العفة، أو فقدان عزيز أو حبيب، أو الولاء للوطن، أو الدوس على الكرامة: انتحار الفيلسوف سقراط عندما تقرّر إعدامه حفاظاً على شرفه»

(Brian L.& al., 2004, pp5-6)

في العصر الحديث، تنامت هذه الظاهرة وأصبحت أكثر تعقيداً بسبب تعقد المجتمعات وحياة الأفراد المادية والنفسية. ومع ظهور علم الاجتماع، "أصبح الانتحار مركز اهتماماته، مما أثار تساؤلات حول ديناميكيات التماسك الاجتماعي (social cohesion). وهو ظاهرة مميزة لفهم الروابط بين الفرد والجماعة، وبين علم النفس وعلم الاجتماع." (Ibid., p16)

ويعتبر الانتحار ظاهرة خطيرة على المجتمعات حيث تزايد معدلاته وانتشاره بشكل كبير.

hediabahloul@yahoo.fr

\* وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - تونس.

وهذا يدل على وجود حالة من الأنوميا<sup>(١)</sup> وتفكك الروابط الاجتماعية وعدم الاندماج الاجتماعي.

فالانتحار يرافق كل المجتمعات، مهما كانت درجة تطورها وتقدمها الحضاري؛ فنجد مثلا من بين الدول التي يرتفع فيها معدل الانتحار ويفوق المعدل العالمي العام (٩,١٦ لكل ١٠٠ ألف ساكن)، كوريا الجنوبية (٢٨,٦ لكل ١٠٠ ألف ساكن)، الولايات المتحدة (١٦,١)، الخ. وهي دول متقدمة، كما نجد غيانا البلد الثاني في نسبة الانتحار (٤٠,٣ لكل ١٠٠ ألف ساكن) وهي دولة فقيرة في أمريكا الجنوبية، في حين أن الصومال البلد الفقير الذي يعدّ أحد أكثر الدول معاناة من المجاعة في العالم بـ (٧,٩ لكل ١٠٠ ألف ساكن) أقل من المعدل العالمي (STATISTA, 2019)، وهذا يعكس أن الانتحار ظاهرة معقدة ناتجة عن مجموعة عوامل وليس عاملاً واحداً (الفقر مثلاً).

## ١/ إشكالية الدراسة

تعدّ معدلات الوفيات الناجمة عن الانتحار مؤشراً على الفشل في تحقيق الغايات الأساسية لأهداف التنمية المستدامة (وخاصة الأهداف ٣ و٤): الحدّ من الوفيات المبكرة الناجمة عن الأمراض غير المعدية بنسبة الثلث من خلال الوقاية والعلاج وتعزيز الصحة والسلامة العقلية (٣ و٤)، القضاء على الجوع وضمان الأمن الغذائي بحلول عام ٢٠٣٠.

فوفقاً لتقديرات منظمة الصحة العالمية (OMS)، انتحر أكثر من ٩ أشخاص من بين ١٠٠ ألف نسمة في العالم في عام ٢٠١٩. وأن كل شخص منتحر يؤثر على ١٢٤ شخص

بشكل مباشر حسب دراسات عالمية. وفي العالم العربي وقع تسجيل ٣٠/١٠٠ زيادة في ظرف ٢٠ سنة. (OMS, 2021) في عام ٢٠١٩، يحتل الانتحار المرتبة الرابعة بين أسباب الوفاة بين الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٢٩ عاماً، بعد حوادث الطرقات والسرقة والعنف بين الأشخاص. كما تتفاوت معدلات الانتحار بين البلدان والمناطق، فبلغت في مناطق المنظمة لإفريقيا (١١,٢ لكل ١٠٠ ألف نسمة)، وأوروبا (١٠,٥)، وجنوب شرق آسيا (١٠,٢) معدلات تفوق المتوسط العالمي (٩ لكل ١٠٠ ألف) في عام ٢٠١٩، في حين تمّ تسجيل أدنى معدل انتحار في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط (٦,٤ لكل ١٠٠ ألف). وبالإضافة إلى ذلك، فإن عدد الرجال الذين يموتون بسبب الانتحار يزيد عن ضعف عدد النساء (١٢,٦ رجلاً لكل ١٠٠ ألف مقارنة بـ ٥,٤ امرأة لكل ١٠٠ ألف) (منظمة الصحة العالمية، ٢٠٢١).

وبحسب نفس المنظمة (OMS)، فإن مقابل كل حالة انتحار هنالك ما يقارب ٢٠ محاولة انتحار. فتزايد محاولات الانتحار -توضح الدكتور ألكسندرا فليشمان، العاملة في قسم الصحة النفسية بمنظمة الصحة العالمية- هو «نتيجة تجريم محاولة الانتحار، مما يجعل الناس لا يطلبون الرعاية والدعم لمنع الانتحار بسبب الخوف من العواقب القانونية»، الأمر الذي «يشكل عائقاً كبيراً أمام خفض معدل الانتحار في العالم كما هو محدد في غايات أهداف التنمية المستدامة ٢٠٣٠، وهو ما أشارت إليه منظمة الصحة العالمية في إحدى مذكراتها الإعلامية. (ONU INFO, 2023)

في تونس، تطورت حالات ومحاولات الانتحار في السنوات الأخيرة بشكل ملحوظ حيث تشير بعض الإحصائيات أن معدل الانتحار في تونس قد تضاعف مرتين تقريباً بين ٢٠٠٨ و ٢٠١٣ أي من معدل ١,٩٣ إلى ٣,٣٤ حالة انتحار لكل ١٠٠ ألف ساكن. وحسب منظمة الصحة العالمية تحتل تونس المرتبة ١٢ من بين دول منطقة شرق المتوسط. (OMS, 2018)

بالنسبة إلى عالم الاجتماع، فإن تزايد حالات ومحاولات الانتحار يمثل علامة أو عَرَضاً (symptom) على أن المجتمع «مريض». وهو ما يدفعه إلى أن يتساءل -بالإضافة إلى الدوافع والاستعدادات النفسية التي تعود إلى علم النفس- هل هنالك نقاط قوة، أو على العكس، نقاط ضعف داخل مجتمع ما -كما يقول براين وتوسينيان- يمكن أن تساعد على فهم أفضل لسبب شيوع الانتحار في ثقافة معينة دون أخرى، وفي زمن معين دون آخر، وفي مجموعات فرعية دون غيرها. وهل يساهم ارتباك المعايير، وانفكاك الروابط الاجتماعية وتراجع التضامن الاجتماعي في تطور حالات الانتحار؟ (Brian L. & al., op.cit).

فالانتحار هو «ظاهرة إنسانية تميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية» و «فعل فردي ولكنه مشروط بالبيئة الاجتماعية بشكل عام» -هكذا يقول عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم مؤلف كتاب «الانتحار» (١٨٨٧)- و «من الطبيعي أن نخبرنا ظاهرة الانتحار عن حالة المجتمع»، ف«هو ليس ظاهرة فردية بحتة، بل واقعة اجتماعية (a social fact) أي ظاهرة تتجاوز الفرد» (Durkheim, 1981, pp.5-10).

فدوركايم لم يتجاهل العوامل الفردية للانتحار كما هو يقول العديد من العلماء والباحثين، بل أقر بوجود أسباب ذاتية للانتحار، ولكن هذه الأسباب ليست هي السبب الحقيقي، لأن الأسباب الفردية تتولد في سياقات التفاعل الاجتماعي وتنتج عن آثار الحياة الاجتماعية الضاغطة.

كما يعتبر توماس جوينر (Thomas Joiner) - المتخصص في علم الانتحار (Suicidology) - أن الانتحار يعدّ أيضاً علامة على أن هناك أشخاصاً يعانون من شيء ما في حياتهم، فالانتحار لا يعني شخصاً يريد أن يموت، بل هو شخص يريد أن يتخلص من معاناته» (Joiner, Thomas, 2005, pp.275-277). وعليه، فإن وراء كل فعل أو سلوك بشري، هناك أسباب ودوافع كامنة تدفع الانسان إلى القيام بذلك.

وفي هذا السياق، تنزل ورقتنا العلمية للمشاركة في هذا المؤتمر حول «الأمن الإنساني والتنمية المستدامة في العراق والعالم العربي: الواقع والتحديات وسبل المواجهة»؛ وتتضمن ملخصاً لهذه الدراسة التي استخدمنا فيها المنهج التحليلي الإحصائي، للتعرف على تطور حالات الانتحار في العالم العربي بشكل عام، وفي تونس بشكل خاص كنموذج تطبيقي، تحليلات إحصائية وظّفناها في استكشاف عوامل خطر الانتحار، واستنتاج عوامل أو سبل الحماية منه، واستناداً أيضاً إلى دراسات علمية وأهم المقاربات التي تناولت الظاهرة بالدرس.

## ٢ / في معنى «الانتحار» و «محاولة الانتحار»

تُترجم كلمة «الانتحار» في الفرنسية والإنجليزية إلى «suicide»، كلمة من أصل لاتيني (caedere sui)، وتعني «قتل الذات». ولذلك فالانتحار هو أن يقتل الإنسان نفسه (Sillamy, N., 1980, 653). أما في اللغة العربية، فكلمة «الانتحار» مشتقة من فعل «انتحر» وأصله «نحر» أي ذبح وقتل. و «انتحر» الشخص يعني «قتل نفسه عمدا» (المنجد في اللغة العربية، ٢٠٠١، ص ١٣٨٨).

اصطلاحاً، يعرف دوركايم الانتحار على أنه «فعل قتل النفس» (Durkheim, 1981).

أما المختص في علم النفس التحليلي سيلامي نوربرت (Sillamy Norbert) فيقول إن «الانتحار هو عدوان على النفس، وهو عمل إرادي يؤدي إلى الموت. وهذا العدوان على النفس يمكن أن يستخدمه المنتحر كأداة لإيصال رسالة، رسالة

نداء، أو تحدي، أو رفض، أو انتقام» (Norbert, 1993, p653). وأحد أهم وأدق تعريفات الانتحار هو تعريف عالم الأثر وبولوجيا ديفيد لوبريتون (David Le Breton)، الذي يقول: «نادراً ما يكون الانتحار بحثاً عن الموت. بل يهدف أولاً وقبل كل شيء إلى وضع حد للمعاناة. فبدون حل للخروج من حالة العجز، والشعور بأن الوضع لا رجعة فيه، يبدو أن الموت هو السبيل الوحيد لوضع حد لتوتر لا يطاق ... الحياة ليست بالضرورة «الخير الأسمى» للجميع» (Le Breton, 2015, pp9-24).

وهكذا فإن «الانتحار هو قتل النفس لإنهاء الألم، كما أنه أداة لإيصال رسالة (مجتمعية) -يضيف لوبريتان- رسالة يأس ورفض...» (Ibid).

أما بالنسبة لمحاولة الانتحار، فوفقاً لدوركايم هي ممارسة فعل الانتحار دون أن يكون الموت هو النتيجة». ويتمثل الفرق بين الانتحار ومحاولة الانتحار في التالي:

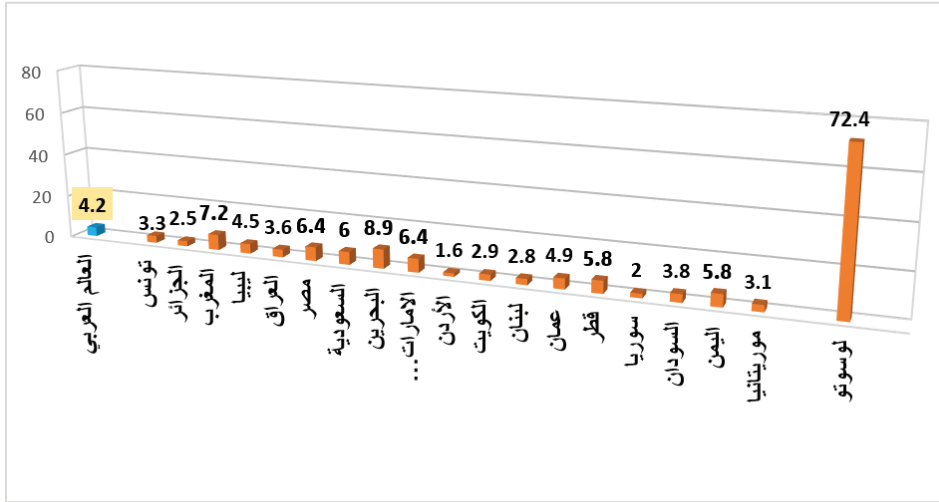
محاولة الانتحار	الانتحار
- تقع بوسائل أقل عنفاً (تناول الأدوية، قطع الشرايين، الخ).	- غالباً ما يكون بطرق عنيفة (الحرق والشنق والسلاح، الخ).
- غالباً ما تحصل في العلن إذ المحاول للانتحار يريد لفت نظر محيطه لمشاكله وآلامه	- يقع في كامل السرية لأن المنتحر يرغب في إبادة الذات نهائياً.
- محاولة الانتحار هدفاً للخروج من أزمة والتعافي الذاتي.	- الانتحار هدفة التخلص من الشعور بالألم والعذاب...
- النساء أكثر عرضة لمحاولة الانتحار.	- الرجال أكثر عرضة للانتحار

### ٣/ تطور حالات الانتحار في البلدان العربية

يتبيّن من الجدول أعلاه (رقم ١) أن نسبة الانتحار في الوطن العربي - بحسب تقرير منظمة الصحة العالمية ٢٠١٩ - تصل إلى ٤,٢ لكل ١٠٠ ألف نسمة. وتتراوح معدلات الانتحار في الدول العربية بين ١,٦ لكل ١٠٠ ألف نسمة (الأردن) و ٨,٩ (البحرين). أعلى المعدلات (وهي أعلى من المتوسط العربي العام) موجودة -بالإضافة إلى

وبحسب توماس جوينر (Joiner, T)، فإن محاولة الانتحار الأولى تجعل الفاعل يعتاد على الفعل، وخطّة الانتحار تكون بعد ذلك أسهل على الدماغ، ويقل الخوف والقلق أمام الموت. كما يمكن أن يشعر بعض الأشخاص بارتياح بعد المحاولة واختفاء مؤقت للقلق، مما يجعلهم يحاولون مرّة أخرى كلما شعروا بمشاعر سلبية (Joiner, 2005). وتشير الدراسات إلى أن معظم الأشخاص الذين انتحروا حاولوا الانتحار مرّة أو أكثر.

الرسم رقم ١: معدلات الانتحار في المجتمعات العربية لكل ١٠٠ ألف نسمة (٢٠١٩)



المصدر: تقرير منظمة الصحة العالمية، ٢٠١٩

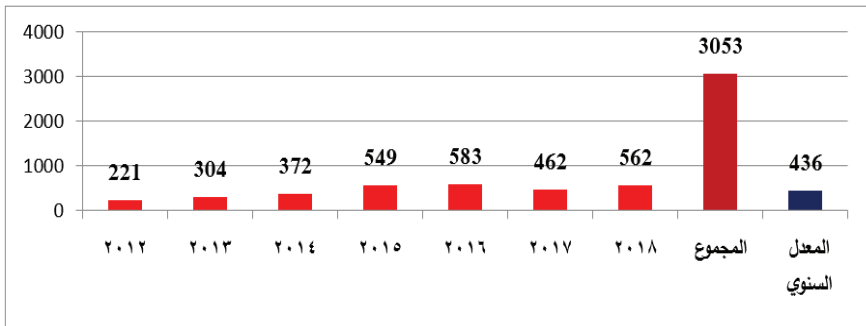
البحرين - في المغرب (٧,٢ لكل ١٠٠ ألف نسمة)، الإمارات العربية المتحدة ومصر (٦,٤)، قطر واليمن (٥,٨)، عمان (٤,٩) وليبيا (٤,٥) الخ. وأقل المعدلات - بعد الأردن - في سوريا (٢ لكل ١٠٠ ألف نسمة)، الجزائر (٢,٥) ولبنان (٢,٨).

ورغم تزايد حالات الانتحار في العديد من الدول العربية، إلا أنها تعتبر الأقل مقارنة بدول العالم الأخرى. ففي دولة صغيرة مثل ليسوتو (Lesotho) في جنوب أفريقيا، يبلغ عدد سكانها مليوني نسمة، يبلغ معدل الانتحار ٧٢,٤ لكل ١٠٠ ألف شخص، مما يعني أن حوالي ١٤٥٠٠ شخص انتحروا عام (٢٠١٩). وهو أعلى معدل انتحار في العالم.

ويبين تحليل تكرار حالات ومحاولات الانتحار حسب السنوات المبينة في الشكل رقم (١) أن حالات ومحاولات الانتحار في المجتمع التونسي في تزايد مستمر بعد انتفاضة ٢٠١١. ويمثل هذا معدلاً سنوياً يبلغ ٤٣٦ حالة ومحاولات انتحار، بنسبة زيادة تفوق الضعف (٢٠١٢-٢٠١٨).

فبعد أن كان معدل الانتحار حوالي ٢ حالة لكل ١٠٠ ألف نسمة في ٢٠١٢ ارتفع إلى ٤,٧ حالة لكل ١٠٠ ألف نسمة عام ٢٠١٨، بزيادة ٢,٧ حالة. وفي رأينا أن هذا التطور يعود إلى خيبات الأمل المتتالية التي عاشها - وما زال يعيشها - أفراد المجتمع التونسي، خاصة بعد انتفاضة ٢٠١١. هذه "الانتفاضة" التي بنوا عليها آمالاً وأحلاماً كبيرة بحياة كريمة. لكن هذه الآمال والأحلام سرعان ما تبخرت، وتحولت «وجهة» انتفاضة الكرامة إلى صراع سياسي تحركه مصالح حزبية ضيقة. أصيب التونسيون بالصدمة وخيبة الأمل، وخاصة الشباب المهمش، وتفاقت معاناتهم ومعاناة العديد من الفئات الاجتماعية: زاد الفقر، وارتفعت تكاليف المعيشة، وزادت نسبة البطالة، وتدهورت الخدمات العامة، وتدهورت بشكل متزايد (الصحة، النقل، التعليم، الخدمات الإدارية، البنية التحتية وغيرها)، أزمة معيشية كان لها أثر كبير على الصحة النفسية للكثيرين: شعور عميق بالظلم والإحباط واليأس والاكتئاب، الذي انجرف بسببه البعض نحو

## الرسم رقم (٢): تطور حالات ومحاولات الانتحار من سنة ٢٠١٢ إلى ٢٠١٨



المصدر: عن تقارير سنوية المنتدى التونسي للحقوق الاجتماعية والاقتصادية ومعطيات من تقارير وزارة الصحة-تونس.

### ٣ / كيف تفسّر أهم النظريات العلمية ظاهرة الانتحار؟

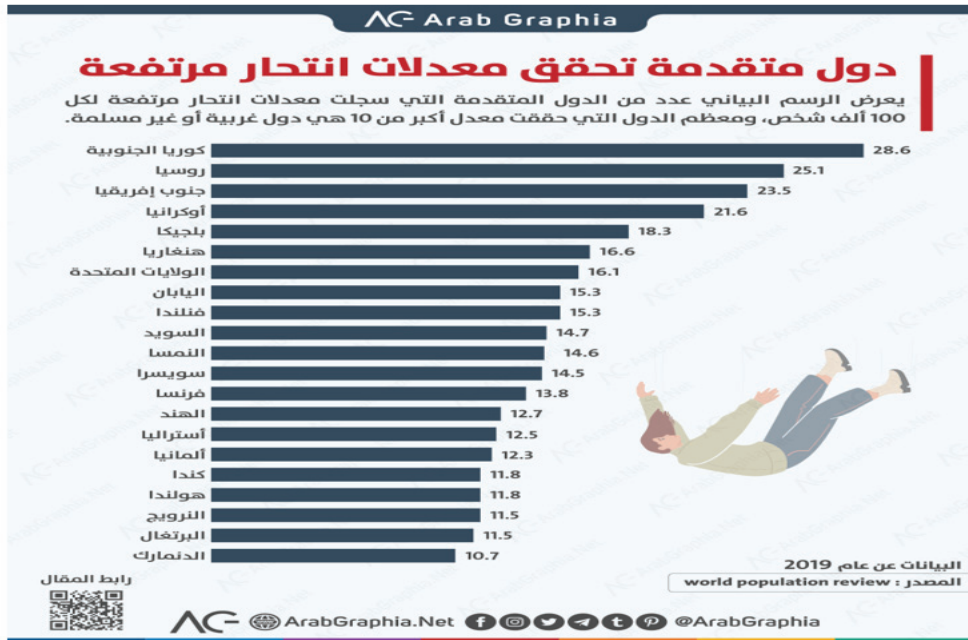
في البداية نؤكد على أنّ الانتحار ظاهرة معقدة، وأنه لا توجد نظرية علمية شاملة قادرة على تفسيرها بمفردها، نظرا لارتباطها بالبنفسية الإنسانية المعقدة من جهة، وباختلاف المتغيرات التي تؤثر فيها من جهة أخرى. وقد أثبتت الدراسات العلمية في هذا الصدد أن هناك أسباب مباشرة ودوافع عميقة وراء السلوك الانتحاري، كما هو الحال مع العديد من الظواهر الاجتماعية المعقدة مثل الجريمة والإرهاب وغيرها.

في بداية القرن العشرين، اعتبر سيقموند

الانحراف والجريمة والإرهاب، وانسحب البعض الآخر إلى المخدرات، واختار الكثيرون مغادرة البلاد على «قوارب الموت»، وقرر آخرون ترك الحياة إلى أجل غير مسمى.

وتصدر الفئة العمرية ٢٥-٣٥ سنة حالات الانتحار في تونس بنسبة ٥٠٪. كما تشمل الظاهرة جميع محافظات البلاد، لكن أعلى المعدلات تتركز في الوسط والشمال الغربي، حيث وتتراوح معدلات الانتحار بين ١١ و٥٧ حالة لكل ١٠٠ ألف نسمة. وهو أكثر شيوعاً عند الرجال ثلاث مرات منه عند النساء (المرصّد الاجتماعي التونسي، ٢٠١٥).

### الرسم رقم (٢): معدلات الانتحار في العالم الغربي



يوضح الرسم أعلاه (٢) أن معدلات الانتحار في البلدان المتقدمة مرتفعة: ففي كوريا الجنوبية وروسيا وجنوب أفريقيا وأوكرانيا، على سبيل المثال، تتراوح معدلات الانتحار بين ٢١.٦ و٢٨.٦، لكل ١٠٠ ألف نسمة في ٢٠١٩. أما أضعف معدل نسبياً، فيوجد في الدنمارك (١٠.٧/١٠٠ ألف نسمة).

فرويد، مؤسس نظرية التحليل النفسي، الانتحار هو نتيجة عدم قدرة الفرد على التعبير عن الدوافع العدائية، وبالتالي يتم توجيهها نحو نفسه من أجل تدميرها (Freud, 1923).

ومن محركات الدوافع العدوانية الاضطرابات النفسية وأهمها «الاكتئاب» الذي يعد من أهم العوامل المرتبطة بالانتحار. وقد أثبتت دراسة (دافيدوف، ١٩٨٤) أن ٨٠٪ من المنتحرين كانوا يعانون من الاكتئاب قبل أن يقرروا الانتحار، وأن الفرد المكتئب هو شخص يعاني من حالة نفسية مظلمة من الحزن والتشاؤم، يميل إلى العزلة، فقد لذّة الحياة ويرفضها كما يرفض وجوده (طاوس، ٢٠١٢).

ويربط المنظور المعرفي الانتحار بطريقة تفكير الفرد التي تؤدي به إلى تضخيم السلبيات واليأس وفقدان الأمل مما يؤدي به إلى الاكتئاب (حيدر، ٢٠١٨، صص ٣٩٢-٤٠٨). بمعنى آخر، الانتحار هو نتيجة خلل في البناء المعرفي للفرد يؤثر على فهمه لوقائع الحياة، ونتيجة لاعتقادات فكرية خاطئة يكوّنها عن نفسه وعن العالم الخارجي. وهذا ما يعبر عليه الثالث المعرفي لببيك (Beck, 1976)، الذي يشير إلى ثلاث أفكار سلبية تؤدي للاكتئاب: أفكار سلبية حول البيئة أو العالم، أفكار سلبية حول الذات، أفكار سلبية حول المستقبل (Beck & al., 1979, p255).

أما المختص في علم الأعصاب بوريس سيرونينك (Boris Cyrulnik)، فيقول: "من أجل فهم سبب الانتحار بشكل أفضل، يجب ربط علم الاجتماع وعلم الأعصاب، مما يوفر فهمًا للترابط بين البيئة والدماغ. وفقًا لسيرونينك، فإن الدماغ

عضو علائقي (relational organ)؛ أي أن البيئة والعلاقات (خصوصًا المبكرة منها) والتغيرات المجتمعية تؤثر على تطور دماغ الفرد، ويحدث هذا التأثير في أي عمر. يؤكد سيرونك على أن علم النفس-المرضي (psychopathology) هو منظور يربط بين علم الأعصاب وعلم الاجتماع والتحليل النفسي (Cyrulnik, 08/09/2017).

وفقا لسيرونك، عامل واحد لا يكفي لتفسير فعل الانتحار؛ فمن الناحية البيولوجية، يعاني بعض الأطفال من ضعف في عملية نقل السيروتونين<sup>(٣)</sup> في الدماغ، مما يجعلهم حساسين وعاطفيين للغاية. وهذا الشعور الزائد يمكن أن يصنع فنانيين عظماء، كما يجعل أطفالا أيضًا أكثر حساسية لتقلبات الحياة. وهنا يدخل العامل الاجتماعي (Cyrulnik, Boris, opcit).

يعد الانتحار في قلب اهتمامات علم النفس الاجتماعي. إنه «ظاهرة مميزة لفهم الروابط بين الفرد والمجموعة... ومع زيادة حالات الانتحار، أصبحت ديناميكيات التماسك الاجتماعي<sup>(٤)</sup> موضع تساؤل» (Durkeim, opcit). يعتقد عالم الاجتماع الفرنسي إ. دوركايم أن الشخص ينتحر بسبب موقعه في المجموعة. ينتحر عندما تضعف روابطه الاجتماعية، أي عندما يشعر بالوحدة، ولا يستمد دوافع وجوده من العلاقات التي يقيمها مع الآخرين الذين يساعده في تحقيق ذاته، وخاصة الأشخاص المهمين في بيئته، يسميهم كارل روجرز «الأفراد المعياريين» (Wilmotte J., et Coll, 1986, p128)، وكما يفهم سيرونك أيضًا بـ «القرية الاجتماعية» (أي الآباء، والأشقاء، والأجداد، والأصدقاء الجيدين..). إذ تعمل

المجموعة على مساعدة الأفراد على إيجاد الطرق الفعالة لتحقيق ما يطمحون إليه أو تخفيف الأهم أو مساعدتهم في حل مشاكلهم (Cyrulnik, Boris, op.cit).

ويعتبر كتاب «الانتحار» لدوركايم من أهم المراجع في علم الاجتماع التطبيقي، لأنه يفسر واقعة الانتحار من خلال المعالجة الدقيقة للإحصائيات الأوروبية في ذلك الوقت (١٩٨٧). ولا يعتبر الانتحار موضوعاً يندرج حصراً في مجال التحليل النفسي، بل هو واقعة اجتماعية تتجاوز الفرد... دون تجاهل وجود الاضطرابات النفسية المصاحبة له... ولكن رغم أن هذه الاضطرابات أو الأمراض بمختلف أشكالها (العصاب، الفصام، الذهان...) تشكل تربة نفسية جيدة للتأثير في الأسباب التي قد تدفع الإنسان إلى الانتحار، إلا أنه لا يمثل في حد ذاته سبباً وليس بالضرورة أن ينتحر على هذا الأساس، فحالته تلك لا دخل لها في الفعل إلا تحت تأثير عوامل أخرى لا بد من البحث عنها.

ويعتبر البعض أن طرح دوركايم محافظ، من حيث أنه يعتقد أن الانتحار واقعة اجتماعية وأن العوامل الاجتماعية لها التأثير الأكبر على نفسية الفرد، وأنه بدون الجماعة يموت الفرد وينهار نفسياً، إذ يقول دافيد بيرتورون «إن علم اجتماع الانتحار، كما يطرحه دوركايم، لا يخبرنا شيئاً عن الفرد وعن المعنى الحميم لموته الطوعي، ولا يقول شيئاً عن المأساة الشخصية للانتحار» و«إن علم الاجتماع سيشرح كل شيء، وسيقضي على كل طموح في علم النفس» (Le Breton David, op.cit). لكن هذه القراءة للتفسيرات الدوركايمية للانتحار تستحق - في رأينا - إعادة النظر، لأن

دوركايم لم يستبعد الدوافع النفسية، بل اعتبرها متغيراً يعتمد على العوامل الاجتماعية، تاركاً المجال لعلماء النفس لتعميقها.

وبحسب دوركايم فإن الانتحار يحدث بشكل عام في المجتمعات التي يضعف فيها التضامن الاجتماعي وتتطور فيها الفردانية. ولتفسير فعل الانتحار، استخدم دوركايم مفهومين رئيسيين:

- التضامن الاجتماعي، أي قدرة المجتمع على بناء روابط اجتماعية قوية ومكثفة بين الأفراد وجعل التفاعلات بين أعضاء المجموعة قوية.

- التنظيم الاجتماعي وهو تنشئة الناس على ثقافة المجتمع وتعديل أهوائهم واحترام أعراف وقيم الجماعة.

وبناءً على هذين المفهومين، وحسب قوة وضعف الانضباط والضبط داخل الفئات الاجتماعية، صنف دوركايم حالات الانتحار (الانتحار الأناني، الانتحار الإيثاري، والانتحار الأنومي أو اللامعاري، والانتحار القدري). و«يفترض أنه كلما انخفضت درجة التضامن الاجتماعي، ارتفع معدل الانتحار الأناني؛ وكلما زادت درجة التضامن الاجتماعي، زاد معدل الانتحار الإيثاري؛ وكلما ضعف الضبط الاجتماعي في كبح جماح الفرد ارتفع معدل الانتحار الأنومي؛ وكلما زادت قوة الضبط الاجتماعي وقدرته على مصادرة حرية الأفراد وكبح جماحهم ارتفع معدل الانتحار القدري» (علي وطفة، ٢٣/١٠/٠٧).

ويقول سارج بوغام (Paugam S). المختص في دراسة الروابط الاجتماعية «من الواضح أن دوركايم مهتم أكثر بالانتحار اللامعاري

والانتحار الأناني. وهي أشكال الانتحار السائدة في المجتمعات الحديثة.

وقد يقتل شخص نفسه بسبب انعدام الاندماج الاجتماعي المرتبط بمتانة واستدامة الروابط الاجتماعية (في العائلة، مع الأصدقاء، في العمل، والجمعيات...); التي تحقق له الحماية والاعتراف: الحماية من مخاطر الحياة، والاعتراف من خلال التفاعل الاجتماعي الذي يحفز الفرد ويثمن وجوده وقيمه في نظرة الأخر أو الآخرين (Paugam, 2022). في نفس السياق، يقول توماس جوينر (T. Joiner) - المتخصص في علم النفس الإكلينيكي - إن «الشخص يطوّر الرغبة في الانتحار لما يشعر أنه منفصل عن الآخرين وأنه وحيد ومنعزل وفقد الرابط بينه وبين من حوله (أقارب، أصدقاء، وحتى الوطن نفسه) ويفتقر إلى الرعاية المتبادلة، أي وجود أشخاص يعنى بهم ويعتنوا به في حياته، مثل الأبناء الذين يحتاجون لأبويهم أو الآباء الذين يحتاجون لأبنائهم (Joiner, 2005). تعتبر نظرية «العدوى الاجتماعية» الانتحار «معدياً»، حيث ينتحر عدد من الأشخاص، وخاصة الأطفال والشباب، في وقت واحد أو في نفس الفترة وفي نفس القرية أو المنطقة، وغالباً بنفس الطريقة<sup>(9)</sup>. وتعتبر نظرية «التعلم الاجتماعي» القائمة على فكرة التعلم والممارسة بالمحاكاة هي الأكثر إقناعاً بتفسير «عدوى الانتحار»، على افتراض أن المنتحر المحتمل هو في حالة صراع بين «الاقدام» و «الإحجام» عن الانتحار. وينتهي هذا السلوك «المتردّد» بمجرد رؤية شخص آخر يُقبل على

هذا الفعل؛ خاصة إذا كان هذا الشخص الآخر يشبهه أو في ظروفه، أو كان شخصية معروفة ومشهورة. وبالتالي، فإن الأشخاص الذين ليس لديهم ما يحركهم داخلياً للانتحار لن يكونوا مهينين للعدوى ولن يقدموا على الانتحار بمجرد أنهم علموا أو شاهدوا واقعة انتحارية. فالعلم بها ما هو العامل مثير (Exciting factor) يضعف الكوابح الداخلية ضد الانتحار، وينتصر «الاقدام» على «الإحجام»

(Cf : N. Gérard & al., 2012, pp164-170).

وهكذا، ومن هذه النظريات العلمية للانتحار التي قمنا بتطويرها، نرى أن تفسيراتها متكاملة، وأنه لا توجد نظرية وحدها تكفي لتفسير فعل الانتحار وتحديد كافة العوامل الأساسية والدوافع والقيم الأساسية المرتبطة به. فالسلوك الانتحاري - مثله مثل كل السلوك البشري - هو نتيجة مجموعة من العوامل المتفاعلة، بعضها ذاتي وبعضها الآخر مرتبط بكيفية عمل الأنساق الاجتماعية: ضعف التنشئة الاجتماعية، وتراجع الروابط الاجتماعية، وصعوبة الظروف المعيشية، فضلاً عن سيطرة الجانب المادي للحياة وانتشار النزعة الفردية التي أضعفت العلاقات بين الأفراد، وأثرت على نفسية الأفراد: إحباطات، توترات، ألم، يأس، اكتئاب... وهو ما يذكرنا بعبارة شهيرة للمؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي: «الحضارات لا تموت قتلاً، وإنما تموت انتحاراً» (السيد، ٢٠١٥).

## ٤ / عوامل خطر الانتحار في المجتمعات العربية تونس مثالاً تطبيقياً

ماذا نعني بـ «عوامل الخطر» (risk factors)؟

عامل الخطر يعني حدث أو حالة أو متغير يزيد من احتمالية حدوث أو زيادة خطر. يتم التعرف على المتغير كعامل خطر إذا كان موجوداً قبل ملاحظة النتيجة (على سبيل المثال، يعتبر متغير «ضعف الروابط الأسرية» عامل خطر لـ «الانتحار»، فهو متغير سابق عن حصول الانتحار (هـ. الهلول، ٢٠١٧، صص ٣-١٦).

بشكل عام، يعتبر «عامل الخطر» حالة موجودة مسبقاً تزيد من احتمالية الاقدام (المرجع السابق) على الانتحار. كما أن العلاقة بين «عامل الخطر» والنتيجة هي احتمالية وليست حتمية. وليس بالضرورة سبباً للتأثير.

هنالك «عوامل خطر ثابتة» (fixed risk factors) من غير المرجح أن تتغير؛ على سبيل المثال، الصحة العقلية للشخص المعرض للخطر، و«عوامل خطر ديناميكية» (dynamic risk factors) مثل العزلة والبطالة وغياب الإشراف الأبوي، إلخ. والتي يمكن تعديلها عن طريق عوامل الحماية (نفس المرجع).

### ما هي عوامل خطر الانتحار؟<sup>(٦)</sup>

إن التغيرات الاجتماعية التي شهدتها المجتمعات بشكل عام منذ بداية الحداثة (القرن التاسع عشر) وحتى اليوم، زمن الحداثة المتوحشة، كان لها انعكاسات كبيرة على المؤسسات المجتمعية وحياة الإنسان وحالته

النفسية. حيث تفككت الأسر التقليدية، وارتخت الروابط الاجتماعية، وظهرت النزعة الفردية، وتراجع التضامن الاجتماعي، وظهر تقسيم العمل القسري، وتراجع دور الدين في دعم التماسك الاجتماعي من حيث أن التصورات الدينية تلعب دوراً مهماً في اكتساب الأفراد الشعور بالأمن، والصبر على الألم والمعاناة كشكل من أشكال العبادة. هذه التغيرات الاجتماعية الكلية أدت إلى ظهور أو تتطور العديد من الظواهر الاجتماعية الضارة بالفرد والمجتمع، كالانتحار.

أشارت العديد من الدراسات حول الانتحار، بما فيها دراسة تونسية أجريت عام ٢٠١٥ (المركز الاجتماعي، مرجع سابق)، إلى أن أهم «عوامل خطر» الانتحار في معظم المجتمعات العربية ترتبط بشكل عام بالظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة - وربما انتشار الانتحار في المناطق الفقيرة والمحرومة من الحياة الكريمة خير دليل على ذلك- ففي المجتمع التونسي على سبيل المثال، سجلت أعلى معدلات الانتحار في القرى الفقيرة في داخل وجنوب البلاد، حيث تبلغ معدلات الفقر والفقر المدقع أعلى مستوياتها وحيث ينتشر الأمية والجهل... فهذه العوامل الموضوعية تمثل عوامل ضغط على نفسية الفرد وتولد لديه الإحباط واليأس، والشعور بالاكنتاب الذي هو السبب المباشر للانتحار، وهو ما أكدته الدراسات النفسية والاجتماعية في أغلب الدول.

تدهور الأوضاع المعيشية اليومية للأسر في تونس كما هو الحال في العديد من المجتمعات العربية (صعوبات مالية، بطالة، خلافات زوجية، عنف أسري، تردي الخدمات الاجتماعية من صحة ونقل وتعليم، وغيرها)، يمثل معاناة

إنسانية حقيقية وعوامل قاهرة تقوّض صحة الفرد النفسية والذهنية وقدرته على المقاومة. إذ يعتبر دوركهايم أن تفكك الأسرة وعدم قدرتها على ضمان التضامن بين أفرادها أحد عوامل الانتحار وأسبابه ..Durkheim, op.cit

وفقاً لنتائج معظم الدراسات، فإن حالات ومحاولات الانتحار أكثر شيوعاً بين الشباب والأطفال والمراهقين وهي الفئات الأكثر تأثراً بالبيئة والظروف الاجتماعية والاقتصادية للبلاد (مثل البطالة، والفقر، وغياب الرعاية الأسرية والتضامن الاجتماعي، الخ). إذ تشير الدراسة التونسية (٢٠١٥) أن عجز أو فشل الوالدين في تلبية احتياجات أبنائهم والتعرف على مشاكلهم ومساعدتهم على حلها؛ ومراقبتهم وتوجيههم والتواصل معهم، من شأنه أن يدفعهم للبحث عن بدائل: مثل صحبة السوء وإدمان المخدرات الضارة بالصحة النفسية والعقلية، وكذلك الإدمان على الألعاب الإلكترونية العنيفة والخطيرة، والتي أودت بحياة عدد كبير نسبياً من الأطفال المنتحرين في تونس. وهذا ما وثّقتة محكمة تونسية، حيث أمرت بإغلاق المواقع المرتبطة بهذه الألعاب التي أدت إلى انتحارهم<sup>(٧)</sup>.

تعتبر الطفولة والمراهقة مرحلة هشة في حياة الإنسان ولها احتياجاتها الخاصة. يحتاج الطفل إلى الحماية والاعتراف، من خلال الروابط الأسرية السليمة؛ يحتاج إلى الرعاية والحب والحنان والاحترام والاستماع والمساعدة وما إلى ذلك. فمثلاً عندما يُحرم الطفل والمراهق من الحنان الأبوي والأمن والعطف بسبب قسوة الأب-مثلاً وإهاناته، أو قلق وتوتر الأم الدائم بسبب أعباء الحياة وصعوبة الأدوار التي تلعبها...

كل هذا يؤدي إلى القلق وتدني احترام الذات لدى الطفل الذي كثيراً ما يسعى، وخاصة في مرحلة المراهقة، إلى إثبات نفسه والحصول على تقدير الآخرين. ففي هذه المرحلة العمرية تحدث تغيرات بيولوجية ونفسية لدى المراهقين لها آثار عميقة على مزاجهم وتفكيرهم وسلوكهم... كما تتميز بعدم النضج والمغامرة وعدم القدرة على حساب عواقب التصرفات وضعف المقاومة. وبالتالي، وفي غياب روابط الحماية والاعتراف، خاصة داخل الأسرة، وكذلك من جانب مؤسسات الطفولة الرسمية التي يتمثل دورها في مساعدة الأسر على مواجهة الصعوبات وإرشادها ودعمها، يشعر هؤلاء الأشخاص بعدم الأمان والضعف والقلق النفسي واليأس، مما قد يدفعهم إلى الانتحار.

كما أن هناك عوامل خطر الانتحار مرتبطة بـ «الدراسة» -أبرزتها الدراسة التونسية- لأن المدرسة العمومية أصبحت اليوم بيئة غير جذابة وغير مرغوب فيها للأطفال عموماً، خاصة في المناطق القروية، حيث الفقر، وبعد المسافة عن المنازل، وصعوبة طرق التنقل، وتدهور البنية التحتية المدرسية، الخ. كما تراجعت أو اصر الصداقة والتعاون والتعاطف بين الزملاء بعضهم البعض، وفيما بينهم وبين الإطار التربوي والإداري، مما يحد من التفاعلات الإيجابية التي تعزز اللقاء والتعلم، وتخلق جواً ينشر مشاعر الإحباط والعزلة وكرهية الآخرين، والإنسحاب بطريقة أو بأخرى. وقد لاحظنا أن من بين أسباب الانتحار ممارسات «التنمر» (bullying)، كشكل من أشكال الاعتداء اللفظي أو الجسدي أو الجنسي تجاه الأقران والأصدقاء، والذي غالباً ما يحدث بشكل متكرر يومياً داخل الفضاء المدرسي

ومحيطه، مما له انعكاسات نفسية سلبية على حالة الطفل أو المراهق، مثل تدني احترام الذات وضعف التركيز وتراجع مستويات التحصيل الدراسي والغياب المتكرر، كما يشعر بالغيرة عن الدراسة ومن حوله، ويشعر بالضيق والاكتئاب ويكره الحياة، مما يدفعه إلى الانتحار.

إن حالة الفوضى الاجتماعية والتنظيمية (الانوميا الاجتماعية) الناجمة عن التغيرات المفاجئة والسريعة في المجتمع (كما حدث في تونس بعد انتفاضة ٢٠١١)، تمثل عامل خطر للانتحار. ففي تونس، ارتفعت نسبة الانتحار بشكل ملحوظ بين عام ٢٠١٢ و٢٠١٨ من ٢,٠٢ حالة لكل ١٠٠ ألف نسمة إلى ٤,٩ حالة أي بزيادة حوالي ٣ نقاط. وذلك بسبب حالة «الأنوميا» أو «اللأمعية» المجتمعية بمفهوم دوركايم: اهتزاز المعايير وتراجع القيم، إضافة إلى الكساد الاقتصادي والأزمات الاجتماعية، والعراك السياسي، وتراجع دور مؤسسات الضبط الاجتماعي. كل هذه الظروف متفاعلة أنتجت حالات من الإحباط والغيرة والعدمية واليأس والاكتئاب لدى أفراد المجتمع، مما أدى ببعض منهم إلى الانتحار لوضع حد لمعاناة لم تنتهي.

ف «الانتحار الأنومي» -وهو الأكثر انتشاراً في مجتمعاتنا- يمثل علامة على فشل التنمية الاقتصادية في المجتمع وإخفاق عملية تقسيم العمل في تحقيق التضامن العضوي الخلاق، ومن هذا المنطلق يصف دوركايم الانتحار الأنومي بأنه نتيجة حالة من العجز التي تضع الأفراد في حالة من الشعور باليأس وخيبة الأمل» (عن علي وطفة، مرجع سابق).

ويتباين «الانتحار عكسيا مع درجة اندماج المجموعات الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد» (Durkheim, op.cit).. وهو كمؤشر-يقول عالم الاجتماع سارج بوغام- « يجعلنا ندرك مدى أهمية وقوة الروابط الاجتماعية في لحظة معينة (S.Paugam, op.cit). فالروابط الاجتماعية كما صنفها بوغام: الرابط الأسري، والاختياري (الزوجي، الودي، التعاوني، الجمعياتي، وما إلى ذلك)، والعضوي (من خلال الاندماج في مجال العمل) والمواطني (في علاقة بحق المواطن على الدولة في العيش الكريم) هي التي تسمح بالاندماج الاجتماعي وتحمي الأفراد<sup>(٤)</sup> (Ibid) من العزلة، واليأس والاكتئاب المولد للانتحار. ويحدث العكس تماماً عندما تضعف هذه الروابط أو تتفكك. وهذا ما يسميه دوركايم «الانتحار الأنومي»، أي عندما يصبح الفرد غير قادر على الاندماج في المجتمع أو في إحدى مؤسساته، ويجد نفسه دون دعم أو رعاية، دون حماية من مخاطر الحياة، ودون الاعتراف به كشخص مرغوب فيه ضمن الجماعة أو فرد مفيد في المجتمع، أو كمواطن له الحق في الحياة الكريمة. فيشعر بالقلق ويغرق في مشاعر الإحباط واليأس ويفكر في إنهاء حياته.

وفي نهاية هذا القسم من الدراسة نحاول تلخيص محتواه في الشكل التالي (ومن المستحسن قراءته من تحت لفوق):

## الانتحار



### الفرد

(طبيعة شخصية الفرد: ضعف قدرته على المقاومة والتكيف) والاستسلام



### اضطرابات وآلام نفسية (متغير تابع):

الشعور بانعدام الأمن والأمان وبالإحباط وكره الذات والمجتمع وانعدام الأمل وحلول اليأس،  
والكآبة



### عوامل خطر الانتحار

#### الاقتصادية والاجتماعية (متغير مستقل)

كساد اقتصادي، فقر، بطالة، غلاء معيشة... عوامل اجتماعية؛ تفكك أسري، قصور في التربية (الرسمية والأسرية) والقيم والأخلاق، ضعف مراقبة الأطفال وتأطيرهم، والتواصل معهم، مشاكل دراسية وبيئية، الخ.

## ٥ / عوامل الحماية من الانتحار:

ماذا نعني بعوامل الحماية « (Protection facts)؟

الحماية، بشكل عام، هي اتخاذ تدابير لمساعدة (الشخص) وحمايته من الخطر الجسدي أو المعنوي أو سوء المعاملة... و«عوامل الحماية» في هذه الدراسة هي متغير أو موقف يساعد على التقليل أو التعديل من عوامل الخطر التي قد تؤدي بالفرد إلى الانتحار، أو التقليل من الآثار السلبية المرتبطة به، ويساعد الأفراد (المهددين) على التكيف بشكل أفضل مع الأوضاع. ف«عوامل الحماية» ليست دائما عكس عوامل الخطر (هادية الهلول، مرجع سابق)، فعلى سبيل المثال، يمكن تخفيف الآثار السلبية « للبطالة » (عامل خطر) من خلال « التضامن الأسري» (عامل حماية).

وتعود بنا كلمة «الحماية»<sup>(٩)</sup> إلى أسس التضامن والتماسك الاجتماعي في نظرية عالم الاجتماع سارج بوغام، الذي يرى أن الروابط الاجتماعية هي التي تحقق «الحماية» للأفراد من مخاطر الحياة وتقلباتها، وكذلك الاعتراف<sup>(١٠)</sup> بهم ككائنات إنسانية في حاجة إلى تقدير الذات والتواصل والتعاطف والأمان والكرامة

(.Paugam, op.cit). ومن ثم فإن عوامل خطر الانتحار – التي عرضناها في القسم السابق – لا يمكن حماية أفراد المجتمع منها إلا من خلال بناء روابط اجتماعية متينة تقوم على

أساسين، الحماية المادية، والاعتراف المعنوي؛ داخل الأسرة، بين الآباء والأبناء، وبين الزوجين، وضمن مجموعات الانتماء (الأصدقاء مثلا)، وكذلك في مجال العمل، ومن طرف الدولة من خلال الاعتراف بحق مواطنيها في العيش الكريم. وهنا نشير إلى أن ٧٩٪ من حالات الانتحار العالمية في عام ٢٠١٩ حدثت في البلدان المنخفضة والمتوسطة الدخل.

وبالتالي لحماية الفرد من الانتحار، ينبغي معالجة الأسباب الرئيسية والعميقة المولدة للاضطرابات النفسية والألم المعنوي والنظرة العدمية للحياة، الدوافع المثيرة للسلوك الانتحاري.

فالانتحار كما سبق أن ذكرنا هو مؤشر على ضعف الروابط الاجتماعية وتراجع التضامن الاجتماعي واللذين تحدث عنهما دوركايم في القرن ١٩ وسارج بوغام اليوم (ق ٢١). فعوامل الخطر التي سبق طرحها هي تعكس تراجع دور المؤسسات الاجتماعية بدءاً من الأسرة إلى حدّ الدولة. ولمعالجة مشكل الانتحار – كما غيره من المشاكل المجتمعية الخطيرة-ينبغي إعادة الاعتبار إلى الروابط الاجتماعية ودعمها لتحقيق الحماية والاعتراف من خلال اشباع حاجياتهم المادية والنفسية والوجودية:

-دعم الأسرة ماديا وخدميًا (توفير الخدمات الجيدة: التربية والتعليم والصحة والنقل...)، فتوترات الحياة اليومية أثرت على العلاقات داخل

الأسرة: روابط عاطفية رخوة، غياب الحوار، نقص الرقابة على الأطفال ودعمهم والانصات إليهم ... كذلك دعم الأسرة ثقافياً وتوعوياً ومساعدتها على تربية أبنائها خاصة في ظل الثورة التكنولوجية التي أثرت على العلاقات والقيم والسلوك لدى الشباب والمراهقين بالأساس، إذ عجز الآباء عن تأطير أبنائهم ومواجهة هذا التغيير السريع (هادية المهلول، مرجع سابق).

- الاندماج الاجتماعي من خلال العمل من شأنه أن يحيي الفرد من تقلبات الحياة، ومن الفراغ والعقد النفسية والضياع وسوء تقدير الذات، فالعمل - يقول بوغام، يشعر الشخص بأنه مفيد في المجتمع وله قيمة لدى الآخرين.

- لقد أصبحت مكافحة آفة الفقر في بلداننا ضرورة ملحة، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال برامج تنمية اقتصادية وبشرية حقيقية، تتلاءم مع متطلبات وخصائص كل مجتمع. وخاصة تنمية القرى والأرياف المحرومة تماماً من التنمية والتي يعيش أغلب سكانها تحت خط الفقر، وتكثر فيها حالات الانتحار هرباً من بؤس الحياة.

- تعتبر عدوى الانتحار في تونس ظاهرة حقيقية، لأنه تم تسجيل حالات كثيرة في زمن متقارب وفي نفس الجغرافيا (القرية أو المنطقة)، ومثل أي عدوى، فهي لا تؤثر إلا على الأجسام الضعيفة، أي الأفراد الذين يعانون من حالة من الهشاشة النفسية نتيجة وضاعهم الحياتية الصعبة. إن سماع أو رؤية حالات انتحار

أشخاص مثلهم والذين تعرضوا لنفس الأوضاع قد يشجعهم على تقليدهم، وهم في حالة من الضعف النفسي واليأس. ولذلك نعود إلى فكرة أن الحماية تتمثل في معالجة هذه الهشاشة الاقتصادية والنفسية لتقوية المناعة ضد عدوى الانتحار.

- إن النهوض بالمدرسة وإعادة الدور التكويني والتربوي لها أصبح ضرورة مستعجلة لحماية الأطفال من الانتحار ومختلف أشكال الانحراف، إن وجود الأخصائي الاجتماعي والنفسي في المؤسسة التعليمية ليس ترفاً، ولكن دور الأخصائي الاجتماعي مهم جداً في حل مشكلات الطلاب سواء فيما يتعلق بالفاعلين داخل المدرسة أو الأسرة أو بعضهم البعض. فالمختص الاجتماعي يمكنه أن يتدخل إلى جانب كل مؤسسات المجتمع لحل مشاكل التلاميذ النفسية والاجتماعية وغيرها، هذا الدور الاجتماعي - النفسي من شأنه أن يقي التلاميذ من الانتحار (كالانتحار بسبب التنمر من طرف زملاء أو المدرس أو التنمر الإلكتروني، أو في علاقة بالأسرة من خلال التواصل المستمر بالتلاميذ).

- ضرورة الحماية من خلال رابط المواطنة، فمن واجب الدولة أن تحترم مواطنة أفراد الشعب وتحقق لهم حاجياتهم الأساسية التي وردت في دستور البلاد وفي نصوص المواثيق الدولية، التي وقعت عليها كل الدول العربية تقريبا.

- وكان إلغاء تجريم محاولات الانتحار

هذه التدابير ونجحت في خفض معدلات الانتحار (مثل أيرلندا، وجزر كارمان Cayman Islands).

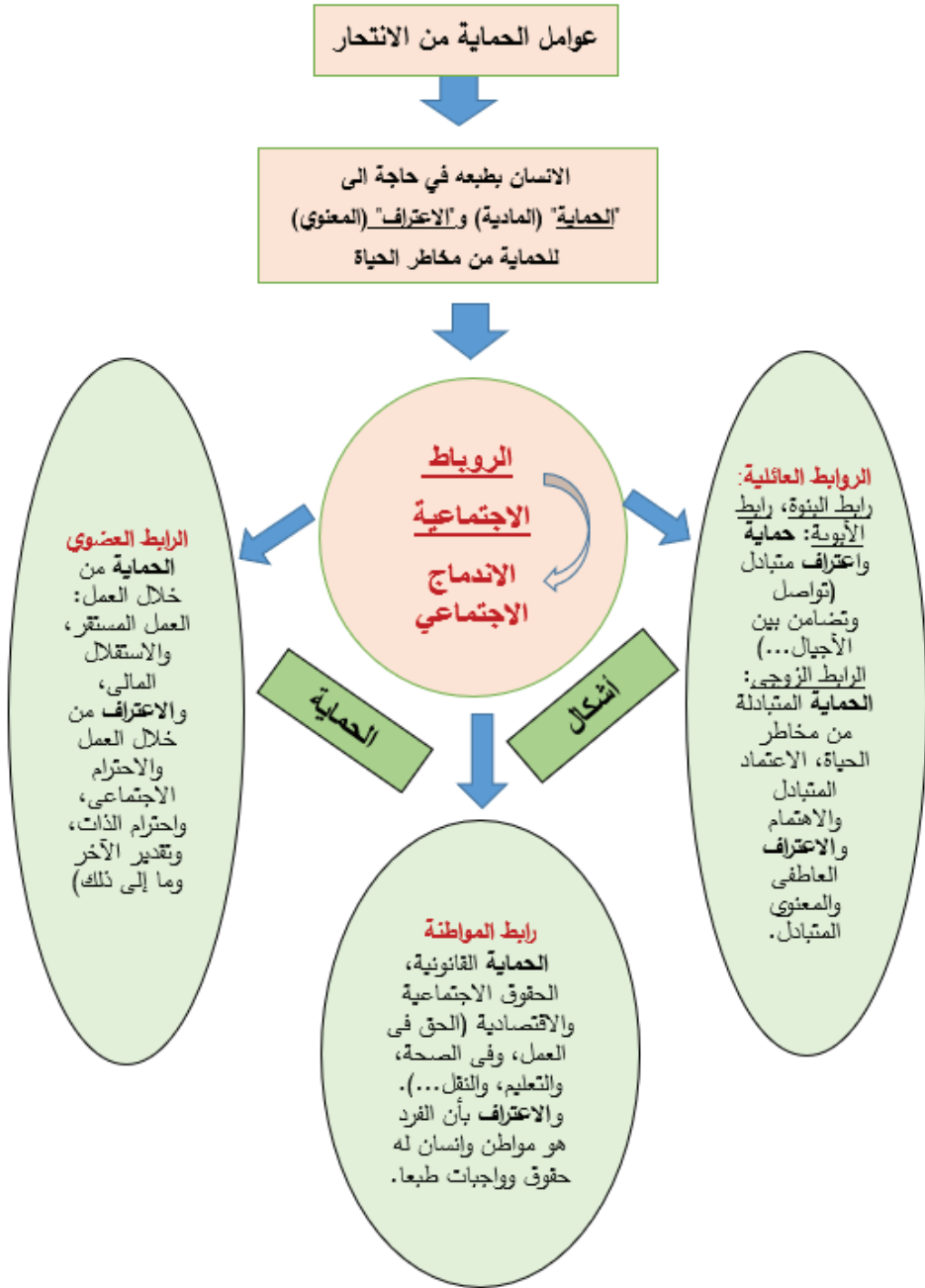
- كذلك العمل مع وسائل الإعلام للحد من التغطية المثيرة لحالات الانتحار التي تحدث في المجتمع. فتح النقاش حول هذه الظاهرة وحول منع الانتحار بشكل بناء ومدروس، بمشاركة متخصصين في العلوم ذات الصلة (علم النفس، علم الاجتماع، التربية...) لفهم السلوك الانتحاري بشكل أفضل في ارتباطه باضطرابات البنية النفسية والعصبية التي أفرزتها البيئة الاجتماعية الخارجية، وليس مجرد عرض الأحداث والصور، والتعاطف مع أسرة الضحية وتبرير الفعل بدلاً من اقتراح طرق أخرى لمواجهة مخاطر الحياة دون الهروب منها بالانتحار.

هذه من أهم سبل الحماية من الانتحار، بناء على ما توصلت إليه الدراسة التونسية من نتائج حول عوامل خطر الانتحار، وكذلك الدراسات العربية التي اطلعنا عليها حول الموضوع.

وفي الشكل التالي سنحاول تلخيص ما ورد في هذا الجزء حول عوامل الحماية من الانتحار:

والانتحار أحد الإجراءات الواعية للحد من الانتحار؛ فالاعتراف بأن الانتحار هو نتيجة لأمراض عصبية (neurologique) واضطرابات نفسية، حتى لو كانت العوامل المجتمعية الموضوعية هي التي تسبب هذه الأمراض، يشكل خطوة مهمة نحو حماية أولئك المعرضين لخطر الانتحار. وأفادت دراسة نشرتها منظمة «متحدون من أجل الصحة العقلية العالمية» أن الانتحار لا يزال يعتبر جريمة في ٢٠ دولة<sup>(١١)</sup> وإن محاولة الانتحار في هذه الدول يعاقب عليها بغرامات مالية ربما تزيد قيمتها عن آلاف الدولارات، أو بالسجن لمدة تتراوح بين ٦ أشهر إلى ٥ سنوات وهي أقصى عقوبة رصدت في الصومال<sup>(١٢)</sup>. "وتقول سارة كلاين المؤسس المشارك لهذه منظمة «إن تجريم الانتحار يأتي بنتائج عكسية، فهو لا يمنع الناس من الانتحار، بل يمنعهم من طلب المساعدة في الأزمات الخطيرة، ويمكن أن يمنعهم من تلقي الدعم الذي يحتاجون إليه لصحتهم العقلية» (UnitedGMH, 2022).

ووبالتالي ينبغي إنهاء وصمة الانتحار وفتح عيادات نفسية لعلاج هؤلاء المرضى النفسيين، وخاصة أولئك الذين حاولوا الانتحار، حتى لا يكرروا ذلك مرة أخرى، لأن معظم الأشخاص الذين انتحروا سبق أن حاولوا إيذاء أنفسهم، كما تشجيعهم أيضاً على الحديث عن مشاكلهم سواء النفسية أو غيرها، بدلاً من وصمهم. وتسهيل وصولهم إلى خدمات الدعم العاطفي أو خدمات حل الأزمات. وقد اتخذت العديد من البلدان مثل



## خاتمة

صحيح أن الانتحار سلوك إنساني طبيعي ملازم لكل المجتمعات، إلا أنه يصبح «مرضا» اجتماعيا خطيرا عندما ترتفع معدلاته وتزايد أعداده بشكل كبير بين الأطفال والمراهقين، كما حدث في المجتمع التونسي في العشرية الأخيرة، وأصبح بمثابة إنذار حقيقي للمسؤولين عن الطفولة في تونس، وفي العالم العربي عموماً؛ ولا يكفي وضع ترسانة من القوانين والتوقيع على المواثيق الدولية التي تسرد حقوق الطفل وتبقى حبرا على ورق دون وضع آليات جديرة بالاهتمام لتفعيلها. إن أشكال إهمال الأطفال أصبحت أمراً واقعاً وظاهراً وخطيراً على الطفولة ومستقبلها وعلى المجتمع ككل. فبالإضافة إلى انتحار الأطفال في سن مبكرة، نرى ظواهر اجتماعية أخرى خطيرة مثل أطفال الشوارع وأطفال المخدرات والأطفال المتسولين والنشالين وغيرها.

وبناء على نتائج معظم الدراسات العربية وغيرها، يتبين لنا أن الانتحار هو «مؤشر على البؤس الأخلاقي» Martine Fournier, 2003

الذي يعاني منه كثير من الأفراد، بسبب البؤس الاجتماعي والاقتصادي وضعف الروابط الاجتماعية والتضامن الاجتماعي - كما شرحنا أعلاه - وتراجع الدور الاجتماعي للدولة.

ولذلك فإن مكافحة هذه الظاهرة الخطيرة لا يمكن أن تتم إلا من خلال حماية الفرد والاعتراف به كإنسان له حقوق وعليه واجبات، ومن خلال

وفي نهاية هذا القسم عن عوامل الحماية من الانتحار، نؤكد أن الإنسان - كما أكد دوركايم في تفسيره لفعال الانتحار - يختلف عن الكائنات الحية في أنه لا يسعى فقط إلى حماية نفسه من خلال إشباع احتياجاته البيولوجية والمادية، ولكنه يحتاج أيضاً إلى الاعتراف من خلال إشباع احتياجاته النفسية والرضا على النفس، والتي في ظروف معينة تفوق الاحتياجات البيولوجية من حيث الأهمية والشدة والتأثير.

وبالتالي، فإن حالات الانتحار تتزايد بين الأشخاص الذين يعيشون حالة من فقدان الروابط الاجتماعية والعزلة وهو ما يسميه توماس جوينر (op.cit). «الانتماء المحبط» (thwarted belongingness). فهشاشة الروابط الاجتماعية، وضعف العلاقات بين الأفراد، وغياب الشعور بالانتماء المجتمعي؛ هذا المجتمع الذي انتشرت فيه النزعة الفردانية<sup>(١٣)</sup> الأنانية على حساب التضامن الإنساني - كقيمة أخلاقية ودينية - من شأنه أن يجعل الأفراد عندما يصابون بصدمة في حياتهم (عائلية، عاطفية، مالية وغيرها) يجدون أنفسهم بمفردهم يواجهون مشاكلهم بسبب غياب الآخرين عن حياتهم. فيصبحون في حالة من التوتر والارتباك والقلق والسوداوية مما يدفعهم إلى اليأس ممن حولهم ومن الحياة ككل. ولذلك يقررون الانسحاب في صمت وترك هذه الحياة التي كانت قاسية معهم وغير رحيمة بهم.

## المراجع

### \* باللغة العربية:

- العود الهلول، هادية (٢٠١٩)، الأسرة والانقطاع الدراسي: عوامل الخطر والحماية، كراسات المركز، سلسلة علم الاجتماع عدد ٣٢ (أشغال الملتقى الدولي- تونس ٧-٦ ديسمبر ٢٠١٧، ضمن مؤلف جماعي: اشراف ومتابعة د. المنصف وناس ود. هادية الهلول)، اصدار مركز السيراس-تونس، صص: ٣-١٦.

- المرصد الاجتماعي التونسي (٢٠١٥)، الانتحار ومحاولات الانتحار في تونس، اصدار المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية.

- السيد، نصر الدين، الحضارات لا تموت قتلا، وانما تموت انتحارا، الحوار المتمدن، العدد ٥٠١١، ٢٠١٥/١٢/١٢ على الرابط:

<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=496412>

- المنجد في اللغة العربية المعاصرة، ٢٠٠١، ص ١٣٨٨.

- حسن، حيدر فاضل (٢٠١٨)، الانتحار، دراسة نظرية، مجلة البحوث التربوية والنفسية، العدد ٥٦، ٢٠١٨، صص ٣٩٢-٤٠٨.

- سهيري، زين (٢٠١٣) دراسة استطلاعية عن ظاهرة الانتحار والمحاولة الانتحارية». مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد ١٠.

- شيخي، رشيد، (٢٠١٤)، قراءة سوسيو-دينية لظاهرة الانتحار في الجزائر». دراسات اجتماعية، العدد ١٥، ص (١٠٥-١٢٠).

- قازان، عبد الله وحيصات، ناديا (٢٠١٥)، مشكلة الانتحار في الأردن من عام (٢٠١٢-٢٠١٥م)، دراسة سوسولوجية، المنارة، المجلد (٤٢)، العدد (٣).

دعم الروابط الاجتماعية التي شهدت تفككا ملحوظا في العقود الأخيرة؛ فثُرَّك الفرد لنفسه (deliver to himself) يعيش العزلة والفراغ والحيرة مما يؤدي به إلى اضطرابات نفسية، تناهي بسلوكيات غير عقلانية كالانتحار.

ونظرا لخطورة هذه الأفة الإنسانية، نشرت منظمة الصحة العالمية أول تقرير عن الانتحار عام ٢٠١٤ بعنوان «منع الانتحار حاجة عالمية» لإثبات أن الانتحار مشكلة يمكن الوقاية منها، وقد التزمت الدول الأعضاء في المنظمة بالعمل على تحقيق الهدف العالمي المتمثل في خفض معدلات الانتحار بنسبة ١٠٪ بحلول عام ٢٠٢٠ (OMS, 2014).

ويجب على الدول العربية أيضاً أن تسعى إلى تطوير استراتيجيات مشتركة بمشاركة الخبراء والمتخصصين، فضلاً عن مؤسسات الدولة ذات الصلة. ويبدأ ذلك بتقديم إحصائيات دقيقة عن حالات ومحاولات الانتحار ورصد المتغيرات الفاعلة لهذه الظاهرة، ومن ثمّ تطوير هذه الاستراتيجيات في ضوءها. فغياب الإحصائيات والبيانات الدقيقة عن حالات الانتحار في تونس، على سبيل المثال، أعاق البحث العلمي المعمق في هذه الظاهرة في تونس، التي تضاعفت معدلاتها خلال العقد الأخير.

- Cyrulnik, Boris, Neuro-sociologie du suicide, conférence, 08 /09/2017, disponible sur : [https://www.youtube.com/watch?v=b6retPUHr\\_](https://www.youtube.com/watch?v=b6retPUHr_)
- Dictionnaire de sociologie, éd. Seuil et Bordas, 1999.
- Durkheim, E., Le Suicide, étude en Sociologie, Paris, PUF, 4eme éd. 1981.
- Freud, S., )1923(, Le moi et le ça, Traduction française de S. Jankélévitch, en 1923, revue par Freud, une édition réalisée par Gemma Paquet, disponible sur : [https://psychaanalyse.com/pdf/le\\_moi\\_et\\_le\\_ca\\_freud.pdf](https://psychaanalyse.com/pdf/le_moi_et_le_ca_freud.pdf).
- Joiner, Thomas (2005), Why People Die by Suicide, Cambridge, Massachusetts M Harvard University Press, pp 275-277.
- Martine Fournier, (2003), Lecture : « L'indice d'une misère morale », fameuse expression d'Emile Durkheim, in « Suicide », 1897, rééd. Puf, coll. « Quadrige », 2002, IN : Sciences Humaines, Septembre-octobre-novembre 2003, disponible sur : [https://www.scienceshumaines.com/le-suicide\\_fr\\_13009.html](https://www.scienceshumaines.com/le-suicide_fr_13009.html)
- N. Gérard, V. Delvenne et H. Nicolis (2012), La contagion du suicide chez les adolescents : aspects culturels, éthiques et psychosociaux, Services de Pédopsychiatrie, Rev Med Brux 33, pp 164-170.
- Le Breton David )2015/1( , « Suicide, travail et sociologie », Travailler, (n° 33), p. 9-24. DOI : 10.3917/trav.033.0009. URL : <https://www.cairn.info/revue->

- منظمة الصحة العالمية (٢٨ أغسطس ٢٠٢٣)، الانتحار، على الرابط

<https://www.who.int/ar/news-room/fact-sheets/detail/suicide>

- منظمة الصحة العالمية (١٧ جوان ٢٠٢١)، إرشادات بعنوان «عش الحياة» لتعزيز جهود الوقاية من الانتحار، على الرابط:

<https://news.un.org/ar/story/2021/06/1078122>

- وطفة، علي أسعد (جوان ٢٣، ٢٠٢٣)، نظرية الانتحار في سوسيولوجيا دوركهايم: قراءة نقدية معاصرة، مجلة التنوير، ٧ أكتوبر ٢٠٢٣، على الرابط:

<https://altanweeri.net/10936/%d9%86%d8%b8>

- وازي، طاوس (٢٠١٢)، ظاهرة الانتحار بين التفسير الاجتماعي والتشخيص النفسي، دراسات نفسية وتربوية، مخبر تطوير الممارسات النفسية والتربوية، عدد.

\* باللغة الأجنبية:

- Beck (A.T.) & al. (1979), Cognitive therapy of depression, Guildford press, New York, p255. Et disponible sur : <https://www.google.tn/search?q=Beck+T,+1979>

- Brian L. Mishara et Michel Tousignant, Comprendre le suicide, PUM, 2004, p5-6.

- STATISTA, Taux de mortalité par suicide dans le monde, par pays en 2019 (pour 100.000 habitants) disponible sur :

<https://fr.statista.com/statistiques/1356903/taux-mortalite-pays-monde/>

## الهوامش

١. «الأنومي» (anomia) هو مصطلح استخدمه دوركايم في كتابه «تقسيم العمل الاجتماعي» عام ١٨٩٣، ويعني حالات عدم الاستقرار والاضطراب والقلق التي تسود المجتمع بسبب غياب القيم الأخلاقية والدينية والمدنية، والشعور اللاحق لدى الأفراد بعدم الاستقرار والاعتزاز. شكّل مصطلح «الأنومي» الإطار الاجتماعي لفهم الوضع المجتمعي المتفكك المفضي إلى فعل الانتحار.
٢. في عام ٢٠١٩، أعلى معدل انتحار في العالم في « ليسوتو» (Lesotho) بمعدل ٧٢ حالة انتحار لكل ١٠٠ ألف ساكن، وهي بلد غير ساحلي في إقليم جنوب إفريقيا. فالفقر (٥٧) في المائة من السكان يعيشون دون خط الفقر) والحزن الناجم عن وباء الإيدز، والافتقار إلى فرص العمل (معدل البطالة ٢٨ في المائة) هي أكثر العوامل المذكورة عن هذا البلد. IFAD, 2010/2011
٣. «السيروتونين» (Serotonin)، المعروف بجرمون السعادة، وهو ناقل عصبي يلعب دوراً مهماً في العديد من الوظائف الفسيولوجية مثل النوم أو المزاج أو الأكل أو السلوكيات الجنسية... ونقص هذه المادة في الدماغ يمكن أن يسبب اضطرابات المزاج. و«السيروتونين» مضاد للاكتئاب. فهو يساهم في الشعور بالراحة ويساعد على تنظيم المزاج والعدوان والعواطف. (Particulier-Santé)
٤. «التماسك الاجتماعي» (Social cohesion) هو مفهوم اجتماعي بامتياز، وهو يحدّد مجموعة من العمليات الفردية والجماعية التي تضمن تمتع جميع الأفراد تمتعا فعالا بالحقوق الأساسية والرفاه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، ويهدف إلى مشاركة كل شخص في بناء مجتمع التضامن والتعاون من أجل رفاهية الجميع.
٥. فسي «العلا»، وهي منطقة صغيرة في محافظة القيروان وسط البلاد التونسية، على سبيل المثال، تم تسجيل ١٥ حالة انتحار بين أبريل وسبتمبر ٢٠١٤ بين الطلاب. كما انتحر ٤ طلاب في نفس المدرسة. وهذه من الأمثلة الواقعية لعدوى الانتحار في تونس.
٦. وفي رصد عوامل خطر الانتحار، اعتمدنا بشكل رئيسي على

travailler-2015-1-page-9.htm

- OMS, (2014), rapport, disponible sur : <https://www.emro.who.int/fr/media/actualites/suicide-prevention-strategies>.
- OMS, (2018), statistiques, disponible sur : <https://www.sasapost.com/countries-with-the-highest-suicide-rates-in-the->
- OMS, (2021), disponible sur: <https://www.who.int/fr/news/item/17-06-2021-one-in-100-deaths-is-by-suicide>.
- OMS, (2023), “Creating Hope Through Action”, sur: <https://www.who.int/campaigns/world-suicide-prevention-day/2023>.
- ONU INFO (12/09/2023), L'actualité mondiale Un regard humain, disponible sur : <https://news.un.org/fr/story/2023/09/1138447>
- Particulier-Santé, sd. Dr. Pierrick Horde, directeur éditorial.
- Paugam Serge (2022), le lien social, Que sais-je, 5eme édition.
- « Unis Pour la Santé Mentale Mondiale » (2022), Décriminaliser le suicide : sauver des vies, réduire la stigmatisation – notre dernier rapport, sur [https://unitedgmh.org/knowledge-hub/decriminalising-suicide-saving-lives-reducing-stigma-latest-report//](https://unitedgmh.org/knowledge-hub/decriminalising-suicide-saving-lives-reducing-stigma-latest-report/)
- Wilmotte J. et Coll. (1986), Le Suicide, psychothérapie et conduites suicidaires, éd : Mardaga

المسؤولية معه ولا من يسانده. ولقد ازدهرت الفردانية وتطورت على حساب التضامن الاجتماعي واندماج الفرد في المجتمع. ويتناغم ذلك مع نمو الروح الرأسمالية الصاعدة التي لا تتمن قيم التضامن الأخلاقي والإنساني. (عن دراسة علي وطفة، مرجع سابق، و Dictionnaire de sociologie, éd. Seuil et Bordas, 1999)

نتائج دراسة تطبيقية أجراها المرصد الاجتماعي التونسي سنة ٢٠١٥، وعلى ما نُشر في عدد من المنشورات الدورية التي تتابع معدلات حالات ومحاولات الانتحار في تونس وأهم خصائصها، ينشرها المنتدى التونسي للحقوق الاجتماعية والاقتصادية منذ العشرية الماضية. وهي مؤسسة غير حكومية والوحيدة بتونس التي ترصد ظاهرة الانتحار وتطورها وخصائصها.

٧. في ١٢ مارس ٢٠١٨، انتحر ٧ أطفال تونسيون جراء اللعب الالكترونية الخطرة. وأصدرت المحكمة الابتدائية بسوسة (وسط الساحلي للبلاد) حكما يقضي بحجب لعبة الحوت الأزرق ولعبة مريم في تونس، وكلفت الوكالة التونسية للإنترنت باتخاذ الإجراءات اللازمة.

٨. Ibid.

٩. من الناحية السوسولوجية، وفقاً لتعريف سارج بوغام، تعني الحماية جميع أشكال الدعم التي يمكن للفرد حشدها في مواجهة تقلبات ومحاطر الحياة (الموارد العائلية، البيئة المحيطة، الموارد المهنية، الموارد الاجتماعية، وما إلى ذلك)، (S.Paugam, op.cit)

١٠. وفقاً لعالم الاجتماع سارج بوغام، يشير الاعتراف إلى التفاعل الاجتماعي الذي يحفز الفرد بتقديم الدليل على وجوده وقيمه من خلال نظرة الآخر أو الآخرين له (S.Paugam, op.cit)

١١. وتشمل قائمة الدول التي تجرم الانتحار: السودان، وجنوب السودان، بنجلاديش، وغانا، وماليزيا، ونيجيريا، وباكستان، بالإضافة إلى أوغندا، والصومال، ويايوا غينيا الجديدة، وميانمار، وسانت لوسيا، وبروناي، وتزانيا، وتوغا، وملاوي.

١٢. وفي نيجيريا، يمكن حتى اعتقال الأطفال الذين لا تتجاوز أعمارهم ٧ سنوات ومحاكمتهم عند إقدامهم على الانتحار.

١٣. الفردانية (Individualism): هي نزعة الفرد إلى أن يقسّر مصيره وفق تصوراته الخاصة دون ضغوط أو توجهات اجتماعية (يختار ويقرّر بنفسه من وكيف يتزوج، علاقاته، حياته، انتماءاته، دينه، إلخ). وهذا يعني أنه عندما يواجه مشاكل أو تحديات ناجمة عن قراراته السيئة، عليه أن يتحمل مسؤوليتها وحده. وفي الوقت نفسه لن يجد من يتحمل

# Suicide in the Arab World : Risk Factors and Prevention

-Tunisia is an applied example -

Dr. Hadia AlOud Al Bhaloul

## Abstract

Suicide mortality is an indicator of targets 2, 3 and 4 of the Sustainable Development Goals: eradicate hunger, provide food security and promote sustainable agriculture (Goal 2), as well as reduce premature deaths from non-communicable diseases by one third through prevention, treatment and promotion mental health and safety (3 and 4) by 2030.

According to the World Health Organization, more than 700,000 suicides occur each year, of which 77% occur in low- and middle-income countries (OMS, 2019), including Arab countries, where rates per 100,000 population range between 1.6 (Jordan) and 8.9 (Bahrain). While in Tunisia, the suicide rate is 3.3 and in Iraq, it is 3.6 per 100 thousand people, etc.

Since 2003, the organization and «the International Association for Suicide Prevention» have decided that September 10 of each year will be World Suicide Prevention Day.

Suicide is part of human behaviour. And each behavior has reasons and motives: social, economic, family, psychological, and for the social researcher, the increase in suicides and attempts is a symptom that society is «sick» and that individuals are suffering from something in their lives. Thomas Joiner, who specializes in the study of suicide, says: «Suicide does not mean that a person wants to die, but rather that a person wants to get rid of his suffering».

In this context, we will present our scientific paper at this esteemed conference, in which we will raise the issue of increasing suicides in the world in general and the Arab world in particular, and adopting Tunisia as an applied model. Presentation of statistical data on which we base our analysis of the phenomenon: suicide risk factors, and its prevention, through the development of comprehensive strategies to achieve the psychological and mental health of the individual, which can only be achieved by achieving a decent life for individuals, Supporting social links that have witnessed significant disintegration in most countries in recent decades. It makes the individual left to himself and in isolation leading to irrational behaviors such as suicide.